سفيان حايدي

ولنا مع أمواج المَغيب لقاء

رواية



دار البسيمة للنشر الكتروني

ولنا مع أمواج المغيب لقاء

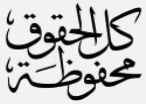


اسم الكتاب: ولنا مع أمواج المغيب لقاء
اسم الكاتب: سفيان حايدي
نوع العمل: رواية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-302-240213
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2024م / 1445هـ



دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)
Darbassma1@gmail.com
المملكة المغربية



دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

ولنا مع أمواج المغيب لقاء

رواية

سفيان حايدي




بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى ذلك الصديق العبدي الذي طرق بابي بالصدفة.

ربما لم تكن صدفة حين عثرت عليك، بل شيئا كنت أنتظره وينتظرني، وقد ساقه الزمن لي.

اطمئن يا صديقي فقد تناثرت كلماتك حبرا وحبا، وحنينا ووجعا على صفائح أوراق تحقق بها وعدك، ووجهكما أنت وهي فقط الغائب عن الحدث.



اعتدتُ كل يوم أحدٍ أن أسرق لنفسي بعض اللحظات، أحاول فيها الهروب من صخب مدينة آسفي[1]، وتعب العمل، وبالتالي كنت أسعى في هذه السرقة الموصوفة لأخذ قسط كبير من الراحة والهدوء والاسترخاء، وكانت وجهتي المفضلة شاطئًا يوجد في بلدة صغيرة تبعد بعض الكيلومترات عن المدينة، وتحمل اسم "البدوزة" أو "الكاب" كما يحلو لساكنة المدينة أن تنادي به هذه المنطقة، وذلك لأن البلدة عبارة عن رأس بحري، تسحر هذه الجوهرة الفاتنة والتحفة الطبيعية كل من يكتشفها لأول مرة، ويعجب بطيبة سكانها وعفويتهم التي قل نظيرها، وطبعًا هذه المتعة وهذا الشغف لا يكتملان لي إلا إذا اتخذت الشريط الساحلي طريقًا ومسارًا، وهو للإشارة امتداد بحري يستهويك بمناظر خلابة غاية في الروعة من صنع الخالق، ويأسر ناظرك بطبيعة جميلة حافظت على عذريتها، دون أن تطالها أيدي الناس لتنميقها أو تتدخل في فطريتها، ويشد انتباهك أيضًا في هذا الشريط الساحلي الممتد كثرة الأضرحة، وقد التصق بعضها بأديم صخور بحرية؛ "سيدي بنكرارة"، " سيدي بوشتة"، "للا فاطنة"، "سيدي شاشكال"...، مما يؤكد على قدسيته، وبعده الروحاني، وأنه مجال خصب للتدبر والتأمل والسكينة منذ القدم،

[1] مدينة مغربية ساحلية تقع على المحيط الأطلسي.

ويجعلك لا تستغرب تسمية منطقة عبدة[1] بمسكن الألف ولي وولي، كما أضحت هذه الأضرحة حاليًا تجمعات دينية وتاريخية وتجارية توطد العلاقات بين القبائل القريبة منها، وتشكل متنفسًا روحيًا لبعض بدو تلك المناطق، أو فيئًا لبعض الغرباء أو عابري السبيل أو متعبين أنهكتهم تقلبات الزمن، فصارت بذلك جزءًا تاريخيًا منحوتًا في ذاكرة هذه المناطق وساكنيها.

ويشكل هذا الامتداد أيضًا مكانًا مثاليًا لعشاق ركوب الأمواج وصيد الأسماك بالقصبة، أو استكشاف الكهوف، أو ممارسة هواية المشي، أو التنقل بالدراجات لمسافات طويلة، ويعد أيضًا نشاطًا مدرًا لدخل بعض الأسر، إذ يتوزع على جنبات ذلك الطريق شيب وشباب، وأطفال في عمر الزهور يعرضون بعض منتوجاتهم الموسمية أو الدائمة، الفلاحية أو البحرية؛ بيض، زبدة بلدية، وتينهم سواء منه النصراني أو المسلم (الهندية النصرانية والكرموس المسلم)، والسمك الطري، ومحار " البوز روك".

يزخر شاطئ الكاب، بعدة مزايا أهَّلته ليكون وجهتي المفضلة، فأنا أولًا عاشق للبحر، ويعد المكان محطة مفضلة لي للتخلص من الضغط النفسي، لتمركزه بين أحضان الطبيعة الساحرة والهواء النقي،

---

[1] لقب تشتهر به مدينة اسفي ويطلق على المدينة والمناطق التابعة إدارية وترابيا لهذه المدينة.

وكذلك لهدوئه وقربه من المدينة، وأجد أيضًا في هوائه المنعش وصفاء زرقة مياهه، وشساعة كثبانه الرملية الذهبية، وغروبه الجميل انتعاشة كبيرة، وأرى في صخوره المنحوتة التي تتلاطم بها الأمواج كأنها شرفات تطل على البحر لوحة فنية أبدع فيها الخالق، لذلك لا غرابة أن تجد أن أغلب مرتادي هذا البحر يكتفون بالجلوس عند حافة هذه الصخور بدل دخول غمار هذا البحر الصعب المراس في كثير من الأحيان.

وثانيًا أنا عاشق للتاريخ والحضارات، وهذه البلدة تحظى بتاريخ تليد، فكل المحكيات والوثائق تؤكد أن المنطقة تاريخية، وقد مر منها وفيها العديد من الحضارات التي تركت بصماتها، ولو في أوراق البحث والتنقيب التاريخي المتخصص، فمن هنا مر الرومان، والقرطاجيون، والأفارقة الأقدمون، والبرتغاليون والعرب العاربة، وآثارهم حاضرة بقوة في الصخور والمغارات، ولعل أبرز مآثر هذه البلدة؛ المدينة المغمورة "تيغالين" الغارقة في عمق هذا الشاطئ، والتي غمرتها مياه البحر بكاملها، ولم يبق سوى آثار تظهر في بعض الأحيان، خاصة عند عملية المد والجزر.

ونجد من بين العلامات التاريخية الحقيقية التي تدل على أصحابها الذين مروا ذات تاريخ من هناك، مقبرة "لالا تساوت"

الحاضنة لرموس في كل اتجاه، حيث إنَّ الدفن فيها لا ينضبط لمفهوم "القبلة"، ومرد ذلك حسب الباحثين في التاريخ المحلي يعود إلى الغرقى الذين كانت تلفظهم أمواج البحر، أو الجوائح والأوبئة التي ضربت مغرب القرون ما قبل العشرين (وبالضبط القرن 15 وما يليه)، وتبقى أبرز معالم هذه البلدة هو الفنار البحري أو المنارة البحرية التي تهدي السفن وبحارتها إلى طريق اليابسة في بحر الظلمات، والتي توقفت عن تأدية الدور الذي من أجله شيدتها فرنسا، منارة تبهر بمعمارها وهندستها الفريدة، وتعد إحدى أربع منارات المغرب.

نعم تلكم منطقتي المفضلة، آمنة باعثة على الطمأنينة والسكينة، هناك حيث الأمان، حيث السكون والهدوء، هناك حيث مظاهر العيش البسيط، حيث الشاطئ الجميل النقي والنظيف.

أعتذر عن هذه الإطلالة الخفيفة، ولكن في جمال هذه المنطقة لا أستطيع أن ألتزم الصمت، أو لا أدمن التفكير والتأمل، فهذا الشاطئ يعجبني كثيرًا، إذ لا شيء يزعجك فيه، أو يعكر صفوك، أو يكسر خلوتك، أو يربك صور هذا الجمال الطبيعي الأخاذ في عينيك، فهناك تتراءى لك المناظر خلابة تعبر عن لوحة تشكيلية انبعثت من خيال فنان مغرم بجمال الطبيعة الساحلية، وربما قد يعيق لحظات تأملك وراحتك فقط أشياء لم تنتظرها، وما سعيت إليها

بمحض إرادتك، ولكن دون أن تدري تفعل ذلك فيما بعد، تأتي بمحض الصدفة أمامك لتستفز فضولك، وتقذف بك في متاهة من الأسئلة، وذلك ما حصل لي، إذ بعدما قضيت وقتًا ممتعًا وكبيرًا متمددًا على كرسي، أسرح بخيالي وأنا أرى تلك الأمواج العاتية التي استأسدت معلنة زئيرًا يثير الرهبة، وتنشر بين الفين والآخر رذاذًا يدغدغ شعوري، ويشعرني ببرودة الأجواء، ارتأيت أن أترجل قليلًا على تلك الرمال المبلولة حافي القدمين، إذ أجد في ذلك شحنات مغناطيسية إيجابية يلتقطها الجسم، قطعت مسافة لا بأس بها، دون أن أشعر بتعب أو عياء، فالأجواء تغريني بالسير لمسافة أطول، ولكن ما باليد حيلة، فقد أشرفت الشمس على المغيب، وقد حان وقت العودة، وعلي أن أعود أدراجي.

وبخطى متثاقلة تتجنب مياه البحر كلما اقتربت منها، فلا تعرف معنى الاستقامة، ورأس لا يعرف الثبات، إذ تحركه رغبة عيون، تريد أن ترمق أي شيء أمامها، أو يحيط بها، فإن أثار إعجابها قد تلتقط له صورًا، وبينما أنا على ذلك الحال، لمحت محفظة فاقعة السواد، متوسطة الحجم، يمكن لمن مر من قربها أن يرمقها دون أن يخطئها، تتوسط صخورًا تآخت فيما بينها، وكأنها شكلت حصنًا منيعًا لها حتى لا تتأذى بمياه البحر، أو تتلقفها رطوبة الرمال، التفت يمينًا وشمالًا فلم أجد أي أحد، فقط بضع نوارس تسعى هنا وهناك، علها

تجد ما تقتات منه، بعد أن هالها هي كذلك وعورة البحر، أو ربما تكون قد أمست بطانًا.

المكان خال من الناس، وتلك من ميزات هذا الشاطئ، إذ يمتد على مسافة طويلة جدًا، ولا يعرف حركة رواج من مرتاديه إلا صيفًا، احترت في أمري، هل أحملها لأرى ما فيها، علني أتعرف على صاحبها الذي قد يكون الآن في بحث حثيث عنها، أو أتركها هناك عرضة لأطماع ملوحة المياه، ورطوبة الرمال، أو ربما قد تستمر هذه الصخور في الدفاع عنها من كل ما يتربص بها، وتحفظها وديعة في انتظار عودة صاحبها.

بعد أخذ ورد مع نفسي، أقنع عقلي برجاحة كل اختيار، ومع ما يحمله فضولي من رغبة في سبر أغوار أي لغز يقف أمامي، وطبعًا في معرفة تفاصيل أي غموض يعترضني، قررت أن أفتحها، وأكون قد أصبت عصافير بحجر واحد، فقد أتمكن بذلك من التعرف على صاحبها، أو أعرف سرها، وطبعًا إن كان يبحث عنها، سأعمل على تيسير الأمر عليه، وإيصالها له، وفي ذلك أجر وثواب.

فتحت المحفظة فإذا بي أجد نفسي أمام مذكرتين، وعشرات الأوراق متوسطة الحجم تم طيها بعناية داخل ظرف كبير، فتشت داخل الكل مليًا وكلي أمل أن أجد ما يدلني على صاحبهم، فما

وجدت، بحثت بين ثنايا هاتين المذكرتين، وهذه الأوراق، وهذا الظرف عن شيء يمكنني من معرفته، فلم أجد، فكرت أن أغلق المحفظة كما كانت، وأتركها هناك، دون أن أكترث للأمر، فلم أستطع، إنه الفضول الذي يشكل منبهًا شرطيًا للعقل، يستفزه لطرح العديد من الأسئلة التي لا تجد لها جوابًا.

سألت نفسي عن هذا السر الغامض الذي وضعته صخور هذا الشاطئ أمامي، أهو عربون وفاء؟ اعتلت فمي ضحكات أقرب منها إلى السخرية، كبحت جماحها ما أثار انتباهي وأنا أتفقد الظرف وأتصفح ما كان مكتوبًا على ظهره بشكل مضغوط، إذ وجدت الأمر كأنه خطاب موجه إلي، وكان ذلك نصه:

"صديقي العزيز، نعم أناديك صديقي، وأنا أعلم أنني لا أعرفك، أما وأنك هنا فهذا يدل على أنك تعشق البحر وتفاصيله مثلي، ولكن أن تفتح المحفظة لترى ما بداخلها، فهذا يؤكد لي أن الفضول فعل بك فعلته، فأنا أحمل الصفة ذاتها، وثق بي، أنا لست قلقًا بشأن ذلك، بل على العكس، أرحب بفضولك، وأنا أمنحك الرخصة للاحتفاظ بالمحفظة، وما فيها، وطبعًا قراءة كل محتوياتها، فتكون قد شاركت عاشقًا عبديًا هذا الجزء من حياته، وإن لم تعجبك هذه البداية فلا تتوسط، ولا تتعمق أكثر، فحتمًا ستزيدك الأوراق

التي بداخل هذا الظرف، والتي أعتبرها رسالة مني لك مسؤولية أكبر، وستكثر أبواب هاتين المذكرتين وفصولها غير المرتبة من توترك، لذا أعدني غريبًا كما كنت، وأعد المحفظة حيث وجدتها، علها تجد أُذنًا صاغية وقلبًا يشفق لحالها، ولا تكترث لكلماتي، أو قم بتمزيق هذه المحفظة وكل ما فيها، وألقه حتى تذروه الرياح، أو تلتهمه أمواج البحر فيلج جوفه، أو يكون ربما لقمة في بطن الحوت".

لا أخفيكم أثارت كلمات هذا الظرف فضولي أكثر من ذي قبل، أعجبني جمالها وجرأتها، وسحرتني طريقة صياغتها، أسرت حضوري وكياني، كيف لي أن أرمي هذه المحفظة أو أتركها وحيدة في هذا المكان، وكيف لفضولي أن يسمح لي أن أمزق ما فيها، تأبطتها، وعدت إلى المنزل، ولكن هذه المرة لست خاوي الوفاض، بل أحمل معي آثار عاشق عبدي[1] مر من تيغالين[2].

وضعت هذه المحفظة في درج المكتب حتى أجد وقتًا مناسبًا أتفرغ فيه لقراءة محتواها، ولأكون صادقًا أكثر راودتني الرغبة في قراءته مرات عديدة، ولكن كنت أضع لنفسي بعض الأعذار الواهية التي تمنعني من ذلك.

---

[1] لقب يطلق على كل من ينتسب إما لمدينة آسفي أو المناطق التابعة لها.

[2] اسم أمازيغي لمدينة تاريخية تقول المحكيات أن مياه بحر الكاب او البدوزة غمرتها بالكامل.

وحلت اللحظة التي عزمت فيها على هذا الأمر، فقد توفر لي الجو الملائم لذلك، فالسكون والهدوء يعمان أرجاء الغرفة، ولا شيء يعلو صوت مطر صَبَّ ليلتها بغزارة، فتتابع تهاطله قطرة قطرة من غيوم اشتد سوادها وتلاطمها، ليثير في القلوب شجنًا لذيذًا يشبه معزوفة موسيقية، ويهمس على نوافذنا وفي آذاننا لحنًا ساحرًا.

وبعد أن بلّلت يدي بتلك القطرات العطرة قليلًا، أحكمت إغلاق النوافذ والستائر، ثم أخذت الكل ووضعته بجانبي ليشاركني دفء السرير، أول ما شد انتباهي أن أوراق الظرف وصفحات المذكرتين مرقمة بالكامل، وإن لم تحافظ على نسقها الترتيبي، ووجدت أن بعض الأجزاء قد حافظت على بياضها، أو بعض بياضها، في حين أن أجزاء أخرى قد فقدت هذا البياض بالكامل، ولعبت بصفائه حروف المداد، فالكتابة لا تكاد تترك مجالًا فارغًا فيه، ومن هذه السطور ما تم تشطيبه بالكامل، وهناك من السطور ما تمت إحاطته بخط، والإحالة على أنه يعود لصفحة مرقمة، فهل للأمر علاقة بحالة هذا الصديق النفسية؟ لا أدري، ربما...، وهل أنا أمام مذكرات رحالة من الزمن الغابر مر من تلك المنطقة، وكيف لصفحات هاتين المذكرتين أن تجمع بين الشعر والنثر؟ وكيف لهذا العاشق المبدع أن يبدع ويكتب كل ذلك؟

صارت المذكرتان والأوراق المصاحبة لها رفيقات لي في أي مكان أذهب إليه، استحوذت على اهتمامي وصحبتي، سواء في المنزل، في العمل، في المقهى، وفي المكتبة، وفي الحديقة، وحتى في المكان الذي وجدتهن فيه، لا أترك صفحة إلا وقد تمكنت من ضبط تفاصيلها، وترتيب إيقاعها، وسافرت بين دروبها أكثر.

بقيت على ذلك الحال أيامًا معدودة، حتى انتهيت، فوجدت نفسي أمام مشروع روائي جميل، وقصة صادقة في كل كلمة من كلماتها، ولا أنكر أن ضبط تفاصيلها، وترتيب أحداثها أخذ مني جهدًا كبيرًا وطاقة كبيرة، وعلى الرغم من ذلك لم أكثرت، إذ كلما تقدمت في القراءة أكثر، إلا وزاد تأثري الكبير ببوح تلك الحروف، وكيف أسعفت تلك الحروف هذا العاشق العبدي – والذي يقر أنه ما كان من أهل الكتابة–، وكيف خضعت له طائعة تساعده في التعبير عن صدق مشاعره.

زاد احترامي لهذا الصديق الذي فرض نفسه علي، فأضحتْ له مكانة في قلبي، وحضورًا عندي رغم عدم تواجده، وصرت أعتز بصداقته، وتقديرًا مني له، قررت حينها أن أفرض حضوره على كل من يهتم بحب لغة الضاد، وبحب القراءة، وأن أجعل سطور كتاباته تحظى باهتمام القراء.

وأترككم أعزائي مع رواية عاشقنا العبدي، ورسالته التي خصني بها، وليعذرني أنني اخترت له عنوانًا جعل فيه لنفسه دون أن يدري، ولي معه دون أدري أجمل لقاء، مع البحر ومنظر الغروب.



رسالة العاشق العبدي

هل سبق لنا أن تساءلنا يومًا لماذا نكتب أو نحاول الكتابة؟

قد أجيب وأقول: إن هناك بعض الأمور نفعلها أحيانًا لأننا لا نملك حتمًا إلا أن نفعلها، لست أدري حقًا لماذا؟ ربما لجينات الإنسان علاقة بالأمر، أو ربما نجد في الكتابة حروفًا وأبوابًا تحمل قيمًا فاضلة لأزمنة سلبية متهاوية، وبالتالي قد تكون تلك الكلمات بابًا للرحمة في زمن القسوة، وبابًا للسعادة في زمن التعاسة، وبابًا للسلام في زمن الفتن والحروب، وبابًا للجمال في زمن القبح، وبابًا للأمل في زمن الألم.

ولأن المقام يقتضي قول الحقيقة، سأكون صادقًا في قولي، لم أكن ممّن يهتمّون بالكتابة فيما مضى من أيام حياتي، لم أكن أحاول

الكتابة كثيرًا، وإن فعلت فمن باب السخرية ممن يدعي ممارستها هواية وفنًا.

كنت أعتبرها مضيعة للوقت ولغوًا، واللغو لا فائدة ترجى منه، ولم أتوقّع يومًا أن أجد في توليفات حروفها مخارج للحزن والأرق غير الدموع والتذمر، وأن أفكّر فيها كمنفذٍ لي من أيام باهتة ثقيلة عشت فتراتها، ومن فراغ ملأ تلك الأيام على شكل مخيف، والإرهاق من التفكير المفرط الذي كان يطعن في استقراري وهدوئي على نحو يقطّع أعماقي، علاوةً على الوحدة التي أصبحت راهبًا فيها بطقوسٍ تخالف كل الأعراف؛ فالقلب فارغ من كل شيء، لا يثيرني شيء، ولا أشعر بشيء، أحاول الاختلاط بمن حولي، فيزيدون من وحدتي، أحاول التأقلم ما استطعت فلا أقدر.

هي خلاصة أيام كوّنت في عقلي فقط مشروع رواية قصيرة متناثرة الأحداث، بشخصيتين رئيسيتين، وكنت إحداها، وشخصيات أخرى مرت مرور كرام، رغم غياب صفة الكرامة عند بعضها، في رحلة إلى الماضي ونبش ذاكرة تناقضت مشاعرها حينئذ؛ حب وانكسار، وخيبات أمل ووعود لفظت أنفاسها الأخيرة، مع ما رافق ذلك من أحداث ومواقف.

حاولت أثناء كتابة هذه الصفحات تجاوز بعض المعايير التي وجدتها ستقيد الكتابة والإبداع من تبويب، وفصول..، وفسحت المجال للتعبير عن كل ما يخالج الوجدان، وما يعكس تناقضاته وتقلباته، متعمدًا نهج مسلك بطيء في الكتابة، فماذا سيحدث إن أسرعت؟ وما جدوى تلك الكتابة التي تدور في سرعة رهيبة، أليس من الممكن أن يكون في التأني فرصة لإضافة أحداث أو مواقف قد تحمل طابع الصدفة أو التعمد، وتتوالى ممتزجة بمشاعر كثيفة، وأحاسيس تتدفق وتتعاظم.

كما أن الخيال الذي يعد إحدى أهم سمات الإبداع والكتابة لا يمكن كبحه، ولا ينبغي تسريع وتيرته، ويتوجّب توفير مساحات شاسعة له لخلق هذا الإبداع، أو على الأقل لحرق الأشجار التي تعيق رؤية الإنسان لذاته وللعالم.

صديقي العزيز:

تمر علينا تجارب بعضها يمر مر السحاب في يوم مصيف، وبعضها يترك فينا أثرًا لا يزول بمرور الأيام عليه، تجارب تجعلنا نتآكل من الداخل بصمت دون أن نحدث ضجيجًا، تجارب تصقل شخصياتنا، تغيرنا كثيرًا غير الذي كنا عليه، أشياء ولدت وكبرت معنا تتلاشى، حتى نصبح شخصًا آخر لا نعرف كيف نتعامل معه، وما

أصعب أن يتوه الإنسان بداخله، لا يعلم أي وجهة يقصد، يحارب الإنسان نفسه ليعاود الشغف إليه، لكن يجد أن الاتجاهات لن تعيده إلى نفسه، ويجد أن البرود احتل كل جسده، فما بداخله أصعب أن تزيله الأيام وتمحوه من الذاكرة، وأكبر من أن يحمله شخص عنه.

صديقي العزيز:

في بعض الأحيان، قد ترى السعادة وأنت تبحث عنها في الأمور البسيطة التي لا تكلف شيئًا حتى تعيش معنى الحياة، قد تجد السعادة وأنت ترتشف فنجان قهوة، مستأنسًا بحرًا تجادله وتحاكيه وترجو ضيافته، وقد تجد السعادة وأنت تتأمل زرقة هذا البحر وأمواجه، أو مده وجزره، شروقًا وغروبًا، وربما قد تهتدي للسعادة بأمر بسيط جدًّا، مثل إمعان النظر في النجوم ليلًا، وبالنجم لطالما اهتدى الإنسان للطريق.

قد تجد الغبطة والسرور في وجه طرف آخر لا تنساه الذاكرة، تلتقي به في لقاء لم يكن مبرمجًا، فتحس أن هناك طاقة كبيرة تنبعث منه وتصيبك في صميم قلبك فتلهم فيك إحساسًا رائعًا.

شخص تخشى التعلق به، وأنت فعلت حقًا، تتمنى أن تجد سببًا لكرهه، ولن تجد.

يا له من إحساس لم تشعر به من قبل!

تشعر عندما تجلس معه وتحاكيه براحة نفسية وانشراح لم يكن لك به سابق عهد، الشيء الذي يجعلك عرضة لأسئلة ذاتية:

–لماذا لم تظهر هذه الأحاسيس والمشاعر من قبل؟

–هل كان هناك دافع لظهورها؟ ولماذا في هذا الوقت؟

–هل هذه الأحاسيس والمشاعر صادقة، أم أنها نزوة واشتهاء أنجبته ظروف ما؟

–هل هذه السعادة التي تشعر بها هي حق لك أم أنها مزيفة، ويجب عليك التخلي عنها، ونسيانها في أول محطة؟

وإذا أمكن الابتعاد عنها قدر المستطاع، فهل يمكن لك هذا؟ وكيف يجب عليك القيام بذلك؟

وتمضي الأيام، وأنت في قمة انتشائك وغمرتك بتلك الأحاسيس، قد يحصل لك أن توقظك استفاقة تتبدد فيها مشاعرك وتتلاشى، بل وتختفي كليًا ليتجه بعدها كل إلى قدره، وتأخذك تنهيدة طويلة، وتقول: هو ليس لي.

إذا أسقطنا هذا الحال على أرض الواقع، فإنه يجب علينا أن نبتعد كليًا عما نطلبه من سعادة، لأنه قد يكون سعيًا وراء طيف خيال مبني على عواطف، ربما قد تكون منسوجة من جهة واحدة فقط، وبالتالي تكون عواطف الجهة الأخرى سادلة خيوطها في جانب آخر، وربما تكون هذه الأحاسيس عبارة عن سراب بعيد بالجسد لكنه قريب بالروح، يزيد إعجابك به كلما لاح طيفه في خيالك أو التقت عيناك بعينيه، أو في حركة أو همسة منه وخفة، أو بسمة تملأ دنياك بريح عطر فياض.

صديقي العزيز:

كلنا يبحث عن عالم مثالي ولو كان أثيريًا، المهم أن يكون، ولو طيفًا، ولو سرابًا، فالمهم هو وجود هذا العالم، نرسم على رماله صداقة وأخوة وحبًا، لكن واقع الحال يقول إننا نعيش في عالم حابل بالمتناقضات لا نعرف ما الذي سيحمله لنا من السعادة أو الحزن، من الحب أو الكره، من الوفاء أو الخيانة، من الراحة النفسية أو عدم الاستقرار، من الانسجام التام أو الاختلاف.

نعيش في عالم صعب التكهن بما سيحمله لنا من مفاجآت، قد تكون سارة تدغدغ مشاعرنا لتهتز طربًا، وقد تكون غير ذلك فترسم عليها ألوان الانكسار والأسى.

كـم مـن الرائـع أن تعـيش مشـاعر الحـب وأجـواءه دون أي عراقيل أو صعاب، ولكن في زماننا هذا لربما قد ترتدي هذه السعادة أزياء مختلفـة، فتنقلـب سـعادتك آهـات، وقـد تتهتـك خيـوط أمنـك وتـذهب أجزاؤهـا أدراج الـرياح إذا مـا مزقتهـا أداة الظلـم، ودمرتهـا بعدوانية.

قـد تتـأرجح نفسـك ويختـل توازنهـا إذا مـا لعبـت بهـا أيـدٍ آثمـة ونفوس مريضة، ولكن تبقى يد الله البيضاء لتضرب بكل ذلك عرض الحائط، لذا يجب عليك ألا تفتح لليأس منفذًا يتسرب إليك عبره، إذ لا بـدّ لشـعلة الأمـل أن تضـيء الظّلمـات، ولا بـدّ لشـجرة الصّـبر أن تطرح ثمار الكرامات، وسوف يجعل الله بعد العسر يسرًا وهبات.

لا تنزع روح الجمال فيك، فمن يفتقدها سيعجز عن رؤيتها أو تـذوق حلاوتهـا عنـد الآخـرين، فـاحرص علـى أن تكـون جميلًا قلبًـا وقالبًا، ولا تـتردد في إهمـال المكالمة التي قـد تعكـر صـفوك، والرسـائل التي قد تزعجك، أزح الستائر وافتح النوافذ، واستنشق هواءً صافيًا عليلًا، كن روحًا جميلة تنشر الحب أينما ذهبت، لا تجامل كذبًا، ولا توافق خجلًا، وابتعد عمن تكره، وتمسك بمن تحب.

صديقي العزيز:

قد تكون مواقفنا متشابهة، وربما قد لا تكون، لكننا نظل بلا شك بشرًا لنا مشاعرنا، ولنا ذكريات أزمنة مختلفة مضت، وعند تذكرها قد ننتشي منها طعم الفرح والسعادة، أو ربما قد تكون إحباطات ومواقف صعبة قاسية تجعل النفس كسيرة حزينة.

أكيد أننا نتعرض في الحياة إلى مواقف عدة، وتجارب جمة، جزء منها قد يكون حزينًا يؤثر في حياتنا ويطفئ جمال الدنيا في أعيننا.

أحيانًا قد نعتاد هذا الحزن حتى نألفه ويألفنا، ويصبح جزءًا منا ونصير جزءًا منه، وفي بعض الأحيان قد تعتاد أعيننا على بعض الألوان، فنجد أنفسنا فاقدين القدرة على أن نرى غيرها.

أحيانًا قد نعتاد على رؤية الجانب السلبي من الأشياء فقط، خاصة إذا كانت أغلب تجاربنا في الحياة مثقلة بالفشل، ومع مرور الوقت يصبح هذا أسلوب حياة، إذ حتى لو امتلكنا كل شيء جميل، فالنفس لن ترى من الكأس إلا الجانب السلبي المظلم فقط.

ولو أننا حاولنا تدبر ما حولنا لاكتشفنا أن كل الألوان جميلة مع فرق في درجات هذا الجمال ومستوياته، فاللون الأسود له جمال ورونق أيضًا، ولكن الأبيض يبقى أجمل منه، وتميل له النفس أكثر،

ولـون السـماء سـواء رمـادي أو أحمـر بـدوره يثـير مشـاعرنا ويحـرك جمودها، ولكن لون السماء أبهى وأروع وأصفى في توشحه بالأزرق.

إذن فلنبحـث عـن الصّـفاء دون أن نكـترث لزمانـه ولـو كـان لحظة.

فلنبحث عن الوفاء ولو كان متعبًا وشاقًا، ولنتمسك بخيوط الشـمس حـتى ولـو كانـت بعيـدة، ولا نـترك قلوبنـا ومشـاعرنا وأيامنـا لأشياء ضاع زمانها، ولا نندم على حب عشناه ولو صار ذكرى أليمة تعتصر قلوبنا.

فلنكن مثل الزهور، فالزهور رغم جفافها أو جفاف شوكها، لن ننسى أنها منحتنا عطرًا فواحًا أزكم أنوفنا ذات يوم وأسعدنا.

فالزهور وإن تألمت لن تتذكر كل فراشة نالت من رحيقها، ولن تتذكر كم حشرة حاولت أن تؤذي وريقاتها.

ربما ستتكلم عن ذلك النسيم الخفيف الذي داعب ساقها الحساس، ولن تتذكر ذلك الهواء العاصف الذي صال وجال ثائرًا ومهددًا باقتلاعها واستئصال جذورها.

فـالزهور وإن اختلفـت لـن تغتـاب أيضًـا أترابهـا، ولـن تـتهجم وتتمرد على عالم الزهور.

لن تتكلم عن أنانية النرجس ولا عن شعبية الياسمين، ولا عن إخلاص الفل أو عاطفة القرنفل.

فالزهور ولو خانتها جميع الفصول لن يتغير لونها، بل ستحتفظ بثوبها وستعترف بجميل وفضل الأشواك على حياتها، وستبقى تحترمها دائمًا كما كانت، ولن تتذمر من غزاتها.

فالزهور إن تألمت لن نغير رأينا فيها.



وداخل ثنايا حزن عميق وبين دروبه..!

وداخل ثنايا حزن عميق دفين وبين دروبه

صورة واقعية أكثر مما هي وهمية خيالية ..

مشـــاعر كثـيرة مبعثـرة ومتناثرة...بعضـــها باردٌ كالصـــقيع .. وبعضها الآخر نارها كالسعير ..

بعضها في محلها .. وبعضها لا ..

وتأبى إلا أن تتخذ حيزًا ليس لها ..

قد يرحمها قدرها وقد يصدها ..!

أحيانًا تُنْهكنا المشاعر بقدر ما ينهكنا الوجع ..

فالحب في غير موضعه مؤلم رغم انصياعنا له وتلذذنا بألمه ..!

واندفاع عقولنا خلف قلوبنا أمرٌ يصعب علينا أن نوقفه أو نصده.

صديقي العزيز:

على بياض هذه الأوراق، سأسكب أحداثًا قد تكون حزينة، وقد تكون عادية، وعبر أثير هذه الصفحات البيضاء أقول:

إلى الذين تضحك عيونهم رغم خيبات أقدارهم، ونكران معروفهم، يتألمون في صمت ولا يشتكون، لا يستطيعون البوح عما يحزنهم، ويلقون بأوجاعهم بعيدًا عن محيطهم مخافة إيذائهم، ويخشون استعطاف أحد أو شفقته، أو أن يكونوا حملًا على الآخرين.

إلى الذين تخفي ملامحهم قصصًا من الحزن لا يشعر بها غيرهم، ولا تزال وجوههم عفوية تخفي كل الألم تحت قناع بسمة يشعر الذي يراها لأول مرة أنها طيبة صادقة، يلتقطون أوجاع كل من يلجأ إليهم، ويوثرون على أنفسهم الاعتناء ولو كان لهم به خصاصة، ويعتنون أكثر بمن حولهم.

إلى الذين جبلت نفوسهم على قمة الصبر والتحمل وشدة الكتمان، وعلى روعة التحكم في مشاعرهم، وقت ما أرادوا يخفون ما أرادوا ويبدون ما أرادوا، يضحكون ورغبتهم ملحَّة للبكاء، ويبكون

وهم في أمس الحاجة لابتسامة ولو كانت عابرة، أو للمسة رقيقة دافئة تمسح عنهم الألم كلمسة يد الطفل الرضيع.

سلام على قلوبكم العاطفية قلبًا وقالبًا، والتي ترسل بريقها لتبدد وحشة ظلمة ليل الآخرين ولو كانت تتألم، تضحك وتبكي لما تفهمه ولا تفهمه، تحييها آيات الشكر، وتأسرها كلمات الدعاء.

سلام على قلوبكم الطيبة قولًا وفعلًا بعدد ما أرهقتها هذه الحياة، وبما واجهتم من خيبات يحتل ضلوعكم بالأنين.

سلام بما صبرتم فوق طاقتكم، وبما تألمتم في أيامكم الثقال، وبكيتم في لياليكم الصعاب.

سلام على هذه الدرر المتلألئة التي إذا رأيتها حسبتها أنهارًا وأمطارًا تزهر القلوب الهامدة.

سلام على نفوسكم الزكية عظيمة الشأن، والتي تتزحزح، فإذا رأت دمعة مسحتها، وإذا رأت فضيلة أذاعتها، وإذا رأت غير ذلك كتمته، وإذا رأت همًا أزالته، وإذا رأت متعثرًا أقامته، وإذا صادفت ضعيفًا أسندته، فإن لم تستطع فيكفيها شرف المحاولة، وذاك أضعف الإيمان، ولها في النية أجر وثواب.

سلام على هذه الطينة النادرة من البشر، عظيمة الشأن، رحيمة الوصل، كريمة العطاء، تسعد لسعادة الآخرين وتحزن لحزنهم.

ولك يا حامل الهم أقول، إنّ الهمّ لا يدوم، مثلما يفنى السّرور هكذا تفنى الهموم.

ففي هذه الحياة نلتقي لنفترق

وما أحلى اللقيا بلا ميعاد.

ورب لقاء لا ينسى، مواقفه تأبى ذاكرتنا إلا تخليدها.

من الشائع أن لكل مقام مقالًا

فهل يطيب المقام إلا بحسن المقال ..

فلتكن كلماتنا تأشيرة الدخول إلى قلوب من نحب.

صديقي العزيز

في أوج الانكسار وعنفوان ظلمته، يعض الفرد بالنواجذ على أعز أحلامه وأغلى أمانيه، فيأتي الصبح من ليل تناسل في ذاكرة تعيد سرد فصول أحداث صادفها، ويمسح الوجه الذاهل شروده بوابل من التأسي والتمني والكثير من الصبر الجميل.

وأنا أكتب هذه الصفحات التي أرّقت بالي مدة من الزمن، بين أن تدخل مملكة النسيان، وأرمي أحداثها في قلاع كتمان محصنة، أو أن أرسم صورتها كاملة الألوان ظاهرة الوجود للعيان، تراءى لي وجعها وهو يستجدي أدعية صباح ومساء، تبدت لي وقد تحلقت بها أكوام من وساخة بشر، بعدما استوطنت فضاءات موشومة بحوافر أحصنة ظلم وأماكن محفورة بأختام قهر.

تبدت لي وقد حاصرها واستبد بها النفي والتشرد، وهي تسطّر ملحمة كبيرة في الصبر.

تراءت لي وهي تستجدي فرحًا أينما كان وكيفما كان، تتوسل حنانًا ورأفة مثل قطط الأزقة تسأل كرم محسن يجود به القدر.

تراءى لي طيفها صعب النسيان، والمملوء فنجانه بالذكريات، والذي كنت أتسكع ذات أيام في دروبه وأسامره الليالي الطوال.

صديقي العزيز:

وأنا أخط سطور هذه المذكرات والأوراق تراءى أمامي حزنها وشهقاتها المتكررة، والألم يعتصر القلب حتَّى حدود السقم.

تراءت لي وهي تحتضن ذكريات طفولة تشمها وتقبّلها، وقد سقتها ماءً ممزوجًا بمزن العين، لتنبت أزاهير الخلاص.